قصة قصيرة

# المماليك يعودون خلسة ...

د. محمد المنسي قنديل

في منتصف الاسفلت وقفنا . أشارت سامية للمدينة . قالت : كل شيء يرعبني . يبعث داخلي شعوراً مثل البكاء .. ومثل الجوع .. كل مرة أراها كأنها المرة الاولى . وكأنه احساس الرعب الاول ..

معا كنا في منتصف الاسفلت . غاية في الغربة والتباعد . قلت : يا سامية أنت حزينة أكثر مما ينبغي.

وسرنا قليلا .. قالت : نلتقي في المساء.. قلت : نلتقي في المساء .. وافترقنا .

أرى المدينة أمام عينيّ . عمارات وحارات رطبة . أشمها . رائحة اللحوم الفاسدة والكشري وحمص الشام . أسمعها . صرير عجلات الترام . احتضار طيور مذبوحة .. ولكني أغمض عيني ، فلا أرى الا صحراء ممتدة قاحلة . انني أكره النوم ولحظة الاظلام. وأخشى ركوب الاتوبيسات المزدحمة حتى لا يسمع الجميع ما يضج في داخلي . وأشهد ان المطر يكون في أول الشتاء رائقا وفي آخر الشتاء يكون مائلا للاخضرار وبه بعض العفونة . يقطر في الكوب الذي أمامي .. كأن هذا الشاي الاخضر هو بقايا الشتاء الذي لا ينتهي .

المقهى خال . لكنني لم أسمع صوت المعلم «نايف» وهو يناديني .. يغمزني بمبسم « الشيشة » حتى انتبهت اليه . قال وهو ينفث دفعة كبيرة من الدخان :

ـ أريدك في أمر هام ..

تناول آخر رشفة من كوب الشاي وبعض التفل .

ـ ذهبت الى حجرتك .. ذهبت الى منزل خطيبتك ولم أجد أحدا .. الامر هام فعلا ..

ـ ...

ـ معي فص أفيون .. سوف نؤجله لما بعد عودتنا .. مشوار بسيط داخل « درب الانسية » ..

مقهى ضيق . حارة ضيقة . أناس لا يكفّون عن الحركة والتكاثر وسط هذا الحيز البالغ الضيق . يتنفسون فتتلوث الجدران . نقوش غائرة . أياد مبتورة . أوعية قديمة . ثم يأتي المساء . أعرف ذلك عندما يخرج الحاج « زينهم » من دكانه حاملا قدر « حمص الشام » الضخم ويلقي بمحتوياته لأبعد ما يستطيع ، فتتناثر الحبوب الصفراء ـ كهرمان عطن ـ بين شقوق أحجار الطريق . أعرف ذلك أيضا عندما تقسم مئذنة القلعة الشمس الى نصفين .. وتتسلل الاشعة خلال شعر سامية دون أن تعطيه لونا محددا .. وتعود العصافير متعبة فلا تجد عشا الا في الزنازين الرطبة ..

حمل الجرسون « الشيشة » والصينية . دفع المعلم نايف الحساب وسرنا . أرض رمادية . سحب سوداء . درب جانبي . غبار . أطفال يلهثون .. عاود نايف الالحاح :

ـ لن تندم لانك أتيت معي .. هذا سري الذي لم أقله لاحد .

رأيت ان هذا البيت على وشك الانهيار . وهذه الوكالة . وهذا المسجد القديم . رأيت ان المشربيات المتداعية يسكنها أناس وفئران كاملو العدد . يتقاتلون على الفتات فتتصاعد رائحة الدم الطازج مختلطة مع رائحة الطبيخ والغسيل بالصابون الرخيص .. رأيت هذا فقلت : أود الصعود الى الجبل ..

سرّ نايف لانني تكلمت اخيرا .. قال :

ـ ما زال الوقت مبكرا للصعود .. انظر ..

أشار للامام . شخص يجلس على عتبة أحد البيوت المتهالكة . جلباب فوق جاكتة داكنة . كوفية بيضاء يحوطها عقال . جمع من الاطفال المتسخين يلتفون حوله. لم يبد عليه انه أحسّ باقترابنا . بوقوفنا أمامه . ملامحه عجوز . لحيته مدببة . ابتسامته ما بين السخرية والذهول يتأمل الاطفال ويشم الغبار ويرصد كل شيء .. قال نايف مذهولا :

ـ ما الذي جاء به الى هذا الدرب المنعزل ؟

فكرت .. انهم كثيرون حتى انهـــم يوجدون في كل مكان ..

ـ هل نتحدث معه ؟

ـ كلا .. هو يعرف طريقه جيدا بلا شك ..

انتهى الدرب الجانبي وظهرت حافـــة الجبل . دخلنا تحت تعريشة من الاخشاب القديمة . أحاطتنـــا جدران متهدمة ملطخة بالسناج . منشور عليهـــا جلود حديثة السلخ ، لم يزل الدم المختلط بالملح يسيل فوقها في خطوط متعرجة .. بعيدا في حضن الجبل ، تلتف ظلال أناس حول نيران متفرقة . تحمل سامية المصباح الغازي وتهبط أمامي . تحذرني مـن الدرج المكسور . وفي فناء الدار تزداد حدة رائحة دورة المياه الموجـودة تحت السلم ، حتى ان رغبتي في لمسها تموت . نتبادل تحية فاترة ونفترق ..

قال نايف :

ـ لقد احتطت للامر.. هناك فانوس في مكان ما.

حركته الدؤوب وحفيف ثيـابه يبعثان الاضطراب في الظلمة التي تحيط بنا . تساءلت :

ـ هذا هو المكان ؟

ـ أجل .. ولكن علينا أن نجد الفانوس أولا .

تلمست حائطا واستندت اليه. نايف يشعل أعواد الثقاب والبرودة المتكاثفة تطفئها . مع كـل توهج كنت المح جسده الضخم وهو يفتش بين الاحجار . يسطـع المكان فأشم رائحة المقابر .. هتف نايف :

ـ وجدت الفانوس ..

اشتعل عود آخر . رأيت الفانوس . ونايف يدخل يده ويشعل الذبالة . دبّت في المكـــان حركة مـــن الظلال ظلت رابضة أمامنا والرائحة الثقيلة تتكاثف .. قلت في ضيق :

ـ ماذا تريد ؟ لماذا جئت بي الى هذا المكان ؟

رفع الفانوس وقال في هدوء :

ـ سوف ترى كل شيء ..

الهواء يرسل صوتا خافتا . تأوهات متواصلة . الفانوس يصنع دائرة مـــن الضوء تكشف عن خراب . تغوص أقدامنا في تراب ناعم . ونتخطى عروقا خشبية منخورة ، سقوفا مائلة ، أواني فخـارية ، بقايا أثاث . تشدني كتلة الظلام رغم تربص الخطر . من هذا المكان تمتد جذور الحطام . بوابات متداعيـة . فتحات تؤدي الى مآوي غامضة تحت الارض . نايف يدمدم . والضوء يرتعد .. هذا سري .. أسأله أين نحن ؟ فلا يجيب . نواصل السير . يختفي الحطام فجأة وتصبـح الارض مستوية .. محتدة .. رائعة .. قلت مدهوشا :

ـ هذه أرض مزروعة ؟

ـ كلا ..

خيّل اليّ انني أرى نباتات غليظـــة وقد شقت الارض .. أشرت في حيرة خائفة :

ـ ولكن .. هذه ؟!

قاطعني بصوت باتر :

ـ هذه عظام آدمية ..

ـ ماذا ؟

ـ تحسسها بنفسك ..

انحنيت . مددت أصابعي . لمسة خفيفة . برودة. كانت صلبة . ناعمـــــة . تضوي تحت تأثير الفانوس وتترك على أطراف اصابعي طبقة مـن الغبار الناعم .. قلت مذهولا :

ـ انها عظام فعلا ..

لوح بالفانوس فتحركت دائرة الضوء . اكتسـى صوته بنبرة غريبة :

ـ يبدو ان القيامة ستقوم في هذا المكان ..

كنت ألهث خلف دائرة الضـــوء . خلف رائحة الموت المؤكد . والعظـــام تتشابك وتخترق الارض . ضلوع نحيلة متماسكة واحد فوق الآخر. فقرات الرقبة متراصة أيضا دون رأس . سيقان ممـــددة . مرتبة الاعضاء في الاماكن الصحيحة . ذراع بارزة بكل طولها. الاصابع المدببة تشير الى شيء بعيد . جماجم مرفوعة في مواجهتنا . تتابعنا مـــن خلال حدقاتها الفارغة . هياكل كاملة ، مسجاة أو مستندة الـى الصبار . كأن كل شيء في انتظار حدوث شيء ما . كلمة أو اشارة غامضة حتى تدب فيها الحياة .. كنت مذهولا ..

ـ أي أناس هؤلاء ؟ أي مقبرة تلك ؟

نايف يسير .. لا أقوى على مواجهـة ما تكشف عنه دائرة الضوء . ولا أقوى علىاغماض عينيّ .. قال :

ـ أنظر ما سيأتي .. سوف يوضح الامر قليلا ..

رفع ذراعه فاتسعت دائرة الضوء . ازدحم المكان بأشياء أكثر غرابة . سيوف صدئة. مقابضها متوهجة. رماح طويلة مشروعة الاسنة . دروع حديدية متكومـة في تلال متفرقة . ثيـــاب . عباءات حريرية موشاة بالقصب وخيوط الذهب . أردية . سترات . عمامات ضخمـة . زرد متـداخل الحلقـات . قمصان نحاسية يعلوها الاخضرار . خوذات ذات زوائد حديدية لحماية الانف والعينين . أحذية طويلة الرقبة . صنادل مطعمة بالمسامير . خطافات وكرابيج وسهام صغيرة وخنـاجر مدببة الاطراف . وسروج ، ساكنة مترية . يفوح منها عفن ثقيل . تنبض بلحظات الترقب . كنت أدور حول نفسي .. ونايف يجلس فوق احد الاحجار . يرقبني.. سألنـي :

ـ هل فهمت ؟

ـ من هؤلاء الناس ؟

ـ ألم تفهم بعد ؟ ألم تشاهد هذه العظام البيضاء . الملابس . الدروع . السيوف ؟ كل ذلك لم يكن موجودا من قبل . لقد برزوا من جوف الارض شيئا فشيئا حتى ازدحم المكان بهم . من الافق الى الافق . انظر هذه الناحية سوف تشاهد هياكل من نوع مختلف . انها الخيول .. خيولهم .. مجمعة ومرتبة وتنتظر .. كل ذلك برز من جوف الارض .. من كل القبور القديمة .. العظام أولا .. ثم الملابس .. ثم السيوف.. كلها في الانتظار ..

ـ من هؤلاء الناس ؟

ـ انهم المماليك .. انهم يستعدون للعودة ..

انتصب واقفا . بدا جرمه الضخم والجبل الذي خلفه متساوي الطول . أشار الى كل الاتجاهات :

ـ لا يكفون عن الزحف . كانت العظام تبرز على حواف الجدران المهدمة .. والآن تملأ كل الخلاء .. سوف تزحف بين الناس وتملأ البيوت ..

اكتسب صوته عمقا غريبا . تجاوب مع الصدى الخافت كأنه نبوءة مؤكدة .. صحت به :

ـ هذا جنون .. انك تهذي !

ـ كل هذياني أمامك .. تلمسه بيدك .. واهذ معي ..

انطفأ المصباح . أخذنا نتعثر عائدين . كنت ألهث ونايف يتبعني .. أسمع غمغماتهم تتعالى .. تتنادى بألقاب التفخيم .. والكلمات التركمانية تستعيد حيويتها . حمحمات الخيل وصليل السيوف والبياده يجلون أطراف الاسنة ويربطون السروج ويصفون السهام .. قال نايف :

ـ لقد تركنا الفانوس خلفنا ولن نستطيع العودة..

واصلنا التخبط بين الانقاض . سمعت صوت ارتطام جسد نايف بالارض . ساعدته على النهوض . لم أتبين ملامحه لكنه كان يتألم .. ظللنا متماسكين . اجتزنا الدروب الضيقة والخرابات .. برز الجبل وكنت اعرف طريقي وسط دروبه .. مررنا ببقعة من الضوء فرأيت الدم يغطي جبهة نايف . هبت انفاس الجبل .. رائحة الصخور المفتتة والصهد . صعدنا . ساعدته على الجلوس فوق أحد الصخور وقلت :

ـ هذا خيال ..

قال وهو يتحسس جبهته :

ـ لماذا ترتعد اذن ؟

ـ كيف عرفت الامر ؟

ـ شهور طويلة وأنا أرقب بروز العظام . وظل الامر غامضا . كل يوم أجلس الساعات الطويلة أراقبها وهي تشق الارض وأسمع التقلصات الخشنة .

أدخل يده في جيبه . حرك أصابعه . سمعت خشخشة السلوفان . مد يده . ناولني قطعة وأخذ لنفسه القطعة الثانية .. قلت :

ـ انها كبيرة ..

ـ لن تساعدنا حتى ولو كانت الضعف ..

وضعتها في فمي . أحسست مذاقها المر اللاذع وهي تلتصق أسفل لساني . توقفت عن الكلام ، وكل منا يحرك فكيه ببطء . فكرت . قد تمدنا ببعض الشجاعة . بدأت عملية الذوبان وانتشرت المرارة الرائعة . أصبحت أضواء الجبل أكثر قربا وتألقا . هبت ريح رخية فتناثر شعر سامية مثل كلمات التمائم . وماتت الشمس ـ التي أعشقها وأخافها ـ في مغارات المقطم . والحمامات في الحواري تشعل وقودها فيتصاعد البخار يلف أجساد النساء في النهار وأجساد الرجال في الليل ويمضي بينهما محملا ببذور الخصوبة. صانعو الحصير يجدلون العصي الملونة ويرسمون خلال النسيج صورا للكعبة وأشكالا لطيور ممزقة الاجنحة . رواد المقاهي الفقيرة يتباحثون في تدبير مصارعة تفوز فيها كلّ الديوك الهندية المتألقة . حتى العظام تبرز ناصعة الالوان وهدير المماليك ينساب مختلطا مع غناء القيان ودق دفوف الجواري وضحكات سامية . أحاول تقبيلها فتفلت مني وترشقني بوردة حمراء . أرفع قدمي من الوحل . يغمغم نايف وينصرف .. يهتف رجل من أقصى الحارة :

ـ وحّد ...

فأرد عليه بخوف :

ـ لا اله الا الله ..

يشهر الرجل سيفه ويرشقه في الجدار ثم يخلع عمامته ويعلقها على المقبض .

فناء الدار . الدرج المتكسر . غرفتي . الفراش المشعث ، والكتب المتناثرة . الصور الملصقة فوق كل جدار . العالم الصامت الكئيب المعادي في أغلب الاحيان . صورة سامية تحاول الابتسام . لو انني نظرت تحت السرير لرأيت العظام الملونة . النافذة مفتوحة تكشف عن المئذنة المكسورة التي تسكنها طيور سوداء .

سوف أنام حتى تشرق شمس جديدة لم تشرق من قبل . أحلم بمدن تبنى من جديد . بشوارع جديدة تبدأ من الصحراء وتنتهي في البحر . صنعت كوبا من الشاي . أخرجت أوراقا قديمة .. قصائد لم تتم . ورسائل لم ترسل .. وتذكارات فقدت تواريخها .. عالمي العاري الضلوع .. لكن الطيور فوق المئذنة المكسورة تصرخ . والاطفال يختنقون في البدرومات والربوع القديمة .. اي بعث هذا ؟

تعالى صوت رفيع يناديني . نظرت من النافذة .

محمد أخو سامية الصغير يقف في وسط الشارع ويشير بذراعه في خوف واضح :

ـ أبي وأمي يريدانك ..

ـ ماذا ؟

ـ انزل سريعا ..

سوف يقودني هو أيضا الى مقبرة أخرى ؟

هبطت . كان مفزوعا. ثمة شيء حدث لسامية.. لم أسأله .. أخذت ادندن بأغنية خافتة . ازدادت درجة فزعه . قال شيئا لم أفهمه . زاد تأكدي ان ثمة شيئا قد حدث لسامية .

ليلة مشبعة بالموت . تحمل في كل لحظة اكتشافا مروعا . الاب ، والام يكرهانني .. ولكن هل تحبني سامية حقا ؟ أي شيء يحمل لي ولو قدرا ضئيلا من التآلف .. الحارات التي عشت فيها أيامي القلقة . البيوت المخربة . النجوم المختلطة بنفايات المجاري . لم تكن نسير في الطريق الى البيت . ظللت ادندن . قال في توتر :

ـ ألا تسألني الى أين نحن ذاهبان ؟..

ـ الى مقبرة أخرى .. هذه ليلة العظام الزاهية الالوان ..

باخت الاغنية . عبرنا بوابة القاضي . قبة قلاوون الضخمة تحتلّ السماء . العظام تصعد مع النباتات المتسلقة فوق واجهة البواكي . اتجهنا الى قسم البوليس . رمقنا العسكري بريبة . صعدنا الدرج الحجري . عبرنا ممرا ضيقا . دخلنا غرفة جانبية . زادت شدة الضوء . كان الضابط جالسا . والأم تبكي فوق أريكة بجانب « التخشيبة » والاب مستند الى الحاجز . نظروا كلهم اليّ . اتهموني للحظة خاطفة . دق العسكري الارض بحذائه .. زعق الاب والام في صوت واحد :

ـ أنت ؟

رمقني الضابط بازدراء مبالغ فيه .. سأل :

ـ أنت خطيبها ؟

ـ ماذا حدث ؟

ـ منذ متى تمت خطبتكما ؟

ـ منذ أكثر من سنة .. ماذا حدث ؟

زعقت الأم فجأة :

ـ لقد اختطفوها ..

خلف الضابط مباشرة لمحت أحد المماليك جالسا فوق سلة المهملات .. ثيابه مطرزة بالقصب وخيوط الذهب المتألقة . عمامته ضخمة . وشاربه يكاد يقسم وجهه الى نصفين . كان جالسا في هدوء واضعا سيفه على ركبتيه ويبرم شاربه في سرور . بحلقت فيه مدهوشا . التقت عيناننا . غمز لي باحدى عينيه ..

قلت :

ـ انني .. لا أفهم ..

قال الضابط بلهجة رسمية :

ـ المدعوة سامية عبد التواب البالغة من العمر اثنين وعشرين عاما .. تغيبت عن بيتها منذ الامس .. هل لديك معلومات عن مكان وجودها ؟

ـ لا أعرف ..

ـ لقد بحث أبوها وأمها في بيوت الاقارب والاصحاب والمستشفيات والاقسام ولم يعثر لها على أي أثر .. هل لديك معلومات ؟

ـ لماذا لم يقل لي أحد .. لماذا لم يخبرني أحد من لحظتها ؟

ـ هناك من يقول انها اختطفت. اختطفها اشخاص مجهولون في سيارة مجهولة .. هل لديك معلومات ؟

ـ من الذي يقول ؟

ـ شهادات غير مؤكدة . أبوها وأمها يقولان انه لم تكن في البيت أي خلافات . هل لديك معلومات عن سبب اختفائها ؟

ـ لم يكن بيننا اي خلافات ..

نظر الضابط الى الاب والام ليرى صدى اجاباتي. زعقت الام في هستيرية :

ـ أريد ابنتي ..

حاول محمد أن يهدئها . جلست في الجانب الآخر . نهض المملوك . سار وهو يتمايل . استند فوق الحاجز الخشبي . نفخ في وجهي . أنفاسه ثقيلة الرائحة . حرك فكه قليلا ثم بصق فوق المكتب . بصقة سوداء من اثر التبغ المضوغ .. قلت :

ـ ماذا سنفعل ؟

قال الاب بمرارة حقيقية :

ـ أنت السبب .. لقد ضاعت منا ومنك .. انت لا تستطيع المحافظة على شيء ..

قلت للضابط :

ـ هل استطيع الانصراف ؟

ـ هل ستبحث عنها في اماكن محددة ؟

ـ لا أعرف .. أنا متعب .. لا أعرف أين اذهب أو من أين أبدأ !

ولولت الام :

ـ فقدناها وانت السبب ..

قفز المملوك من فوق الحاجز الخشبي بحركة رشيقة رغم امتلاء جسده . أخرج سيفه وأخذ يحركه في الهواء حركات سريعة ليجرب مرونة معصمه . ثم وضعه في الغمد مرة أخرى . أشار برأسه في حركة متعالية :

ـ حضراتنا أمير الجيوش البراني .. تعال معي الى مغارات المقطم .. الليلة يتألق نجم السعد ..

قال محمد :

ـ أريد أن نذهب معا .. نبحث معا ..

ضحك المملوك في انشراح :

ـ عفارم.. عفارم.. هذا ولد جميل . هيا نأخذه معنا الى المغارة ..

صرخت :

ـ كلا .. لا أريد أحدا !

هبطت الدرج الحجري . وقفت وسط ميدان القاضي . أحسست بالعطش الشديد .. قال المملوك :

ـ ليس لك في الطيب نصيب ..

وعاد الى داخل القسم . كانت قبة قلاوون مثل خفاش مفرود الجناحين .. صرخت .. أين أنت يا سامية ؟.. البيوت جنب البيوت . وأحجار الطريق جنب أحجار الطريق .. وأنت بعيدة .. الربوع القديمة تهوي وأضلاعنا تتعرى والطيور تحتضر أثناء نومها .. فأين يمكن الذهاب ؟

جريت في الطريق الى بيتها . سوف أجدها في انتظاري . واقفة على أول السلم . تمسك المصباح الغازي لتحذرني من الدرج المكسور .. دفعت باب البيت . صعدت في الظلام . تعثرت في الدرج . شممت رائحة دورة المياه . وجدت الشقة مفتوحة . خالية . المصابيح ترتعد . غرفتها الضيقة . مشربية خشبية . دولاب في الحائط . الفساتين التي أحفظ لونها ، وأحفظ أماكن الرتوق الخفية في كل منها . السرير الضيق ، يزداد ضيقه كلما شاركها فيه أخوها محمد .. أدوات الزينة الرخيصة . المرآة نصف المعتمة . بقايا كتب الدراسة . بقايا هدايا كنت قد أحضرتها . أحسّ بأن ثمة من يتنفس . بتردد الانفاس الباردة .. ولكن.. لا أحد .. فتحت الدولاب.. نظرت تحت السرير .. رأيت العظام بارزة .. تركت الغرفة.. هبطت السلم .. تعثرت . شممت الرائحة .

المرة الاخيرة التي رأيت فيها سامية ، كنا على شاطىء النيل . كنت غريبا تحت الشمس وأمام النهر الفائض . الجرسون يشبه أمير الجيوش البراني . يبتسم . يحضر مشروبات باهظة الثمن. ناقصة السكر. ساعة كاملة بقيت فيها وحدي . أرقب طير الماء وهو يحلق في بطء دون أن يحرك جناحيه .. جاءت سامية متأخرة .. لم تعتذر . جلست . هتفت في ضيق . ما فائدة المدارس والتعليم ؟ أدركت اننا سوف ندخل معا احدى دوائر العذاب . رفعت يدها بالورقة التي كنت أحفظ شكلها جيدا .. دبلوم التجارة المعظم . منذ الصباح ، منذ كل الصباحات وهي تدور .. دكاكين وفنادق وخانات ووكالات . عطارون . بقالون . باعة الاقمشة والاحذية ومهربو العملات .. خلعت حذاءها فجأة . عرق وعفونة ثقيلة . اختلطت بكل ذرات الهواء الذي يهبّ من ناحية البحر . شمها الجرسون وعمال البوفيه وبائعو الفل الذابل . سائقو التاكسيات وعشاق المدارس .. كنت أرى ذرات الرائحة الداكنة وهي تتلوى في خيوط دقيقة .. كانت تتكلم . الحارة رطبة والبيت ضيق .. ووعودك بالغة المشقة .. قلت : البسي حذاءك وهيا ننصرف .. هذا مكان نظيف لدرجة الاختناق .. صرخت بي : « اصعد الجبل. كل الافيون. تحدث مع الشيخ عاشق الصخر .. لعله يفيدك بحكمة ما » . كانت أحلامها قاسية .. والشيخ يشكو لي من أحاسيس غريبة دنسة . كلما التفّ حوله المريدون تزايد هذا الاحساس . وانه في صميم الحفرة عندما يرتفع ايقاع الذكر وتذوب الاجساد وجدا يلهث في جوع ورغبة ..

ماذا أفعل يا سامية .. وأين أجدك ؟..

جامع قلاوون أمامي مرة أخرى . دفعت الباب الخارجي . زعقت في الطرقة الممتدة « يا سامية » .. طارت خفافيش وتمزق نسيج العنكبوت .. فتحت باب البهو .. كان المنبر متحطما . مائلا الى أحد الجوانب . والثريا متدلية خالية من المصابيح ، والاثاثات المنزلية تزحم كل الزوايا وتسد الطريق الى القبلة . ما بين الاعمدة الرخامية تمتد الحبال تحمل الملابس المغسولة . ترتفع الملاءات حتى تضع حواجز بين ركن وآخر ..

هل تكون سامية هنا ؟

أخذت أزيح الملاءات وأخوض وسط الاجساد النائمة . سرير منصوب ذو قوائم مرتفعة . رجل وامرأة هامدان . على الارض حصر ممزقة وأطفال نحاف . متداخلو الاعضاء كل في الآخر . هل هناك قدرا من الدفء ولو ضئيل . لكن الاحجار القديمة لا ترحم . تهمي من خلال الشقوق والآيات المحفورة برودة قاتلة .. أود أن أصرخ في الجميع حتى ينهضوا .. هدمت بيوتهم عبثا . استكانوا في صحون المساجد عبثا . أزيح الحاجز التاسع .. والعاشر والحادي عشر .. أطفال ينامون وعيونهم نصف مفتوحة . صبايا لا يسترهن شيء . رضيع يتبول على نفسه وأمير الجيوش البراني يضاجع امرأة . والمرأة تبحلق مذعورة .

أهذه عين سامية ؟

أمير الجيوش البراني يرفع رأسه وينظر اليّ . يقهقه في سعادة . والضحكة ترن وتخترق كل الاروقة. غمغم الاطفال وهم نيام . وظلت يد المرأة الداكنة فوق كتفه الشاهق البياض . جريت عبر البهو . والممر .

كان الرجلّ الذي قابلناه في أول الليل جالسا على الباب الخارجي .. قلت وأنا ألهث :

ـ هل رأيت سامية ؟

أشار على طول المدى.. جريت حتى باب الفتوح. رجعت الى بيت القاضي . سألت الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم . جدلوا من أسئلتي حصيرا ملونا . ورسموا طيورا تعاني الوحشة . صانعو الحلوى أخرجوا صواني البسبوسة محترقة الحواف. أوقفت الترامات المتهالكة. دخلت الربوع المجهولة والزوايا التي تسكنها العفاريت.. لا الشحاذون أجابوني ولا شيوخ الحارات ترفقوا بي .. فأين أنت يا سامية ؟.. في أي شقة مفروشة .. في أي صحراء .. في أي نهر .. في أي سيارة .. في أي كباريه .. بين أي أيدي .. في أي الازمان تعودين ؟.. بأي قلب أراك .. نائمة .. مستيقظة .. مستمتعة بالحب .. طائعة .. مجبرة .. مغتصبة ؟

كانت السيارات تعبرنا معا . كنت تقولين لي : أنظر .. ان لهم القدرة على الحلم .. تقولين أحلامنا مثل ثوب ممزق .. أقول : لم أطلب منك أن تحلمي بي .. تقولين : أكتب قصائدك العتيقة .. أحلم بالدمار الشامل.. القصائد حبر وورق..العمارات خرسانية.. والسيارات من الصلب .. قلت : هل تحبينني ؟ قالت : أحبك ولكنني لا أستطيع أن أغمض عينيّ .. شممت رائحة قدميها خارجة من كل الشقوق القديمة .. سمعت صوتا . دخلت الربع الذي أمامي . وجدت نايف معلقا فوق حائط .. يده مغلولة والدم ينزف من كل جسده .. قال بصوت متحشرج : لقد عاقبوني لاني أفشيت السر .. قلت : عاقبوني أنا أيضا واختطفوا سامية . سوف أعود الى البيت . سأنام وأغلق الباب من الداخل . سوف أكفّ عن كتابة الشعر ، والبحث خلف السراب ..

انصرفت منكس الرأس ، مقهورا . طوال الطريق أسمع الصهيل . أرى الغربان تحوم . تنتظر أوان سقوط الموتى . هل يمكن أن أغلق حجرتي وأكفّ عن سماع ما يدور في الخارج ؟ يا سامية .. أنت تريين انني لا أستطيع حتى أن أحلم بك .. المماليك يطاردونني ويوقعون العقاب بأصدقائي ..

زعق الفجر من فوق كل المآذن العتيقة . لم يجرؤ أحد على الصلاة . كانت المساجد مزدحمة بالنائمين . بدت طباشير الضوء الرمادي . هلّ يجرؤ أمير الجيوش البراني على مواجهتي تحت ضوء الشمس ؟.. دخلت البيوت . وقفت ألهث خلف الباب .. تطلعت للامام . كانت سامية جالسة على السلم . رفعت وجهها ببطء . حدقت فيّ بنظرة ثابتة . كأنها لا تراني . ولكن وميض عينيها خلق بيننا ما يشبه التعارف .. الشعر الطويل منسدل فوق كتفيها . لم يكن ممزقا ولا مشعثا . كان يلمع بوهن تحت الضوء الرمادي . وجهها الصغير المحدد التقاطيع ، لم يكن باكيا ، ولا مغتصبا .. كان هادئا .. مستسلما كأنما انتهت في التو لمسات خلقه . حول عينيها كانت دائرتان من السواد تكسران حدة هذا الصفاء . اقتربت .. جلست على درجة من السلم أسفل الدرجة التي تجلس عليها . يدها موضوعة فوق ركبتها ويفصل بينهما الفستان الداكن . كانت دبلتي الذهبية في اصبع يدها اليمنى .. لمست ثوبها .. قلت :

ـ ثوبك ممزق ..

خيل اليّ انني لن أسمع صوتها أبدا .. لكنها قالت في هدوء :

ـ يبدو ذلك .

كنت أحسّ بجفاف حلقها .. قلت :

ـ هل آذاك أحد ؟..

قالت بصلابة :

ـ أجل ..

ـ كم كانوا ؟

ـ أربعة ..

ـ مصريون ؟..

ـ مصريون .. أم عرب آخرون .. لا يهم ..

قلت ببلاهة :

ـ هل قاومت ؟

تنهدت . خيل لي انها ستبكي . لكنها لم تبك . كنت أخشى أن أطيل الاسئلة حتى لا تصمت .. وكنت أريد أن أعرف كل شيء .. لماذا لا تبكي ؟.. لماذا تبدو بهذا السكون ؟

ـ هل نصعد ؟

صعدنا .. جلسنا فوق مقعدين متباعدين :

ـ هل أنت جائعة ؟..

ـ كلا ..

ـ كيف حدث ذلك ؟

قالت : أنا محقوقة . أحسست انها ستبكي . أمسكت يدها فسحبتها من يدي . قالت انهم كانوا أربعة في عربة خاصة .. وانها قاومت كثيرا ولكن الشارع كان خاليا .. وذكرت اسم أحد الشوارع القريبة .. سألتها ما الذي كانت تفعله في هذا الشارع . قالت انها كانت تبحث عن عمل . حاولت احتضانها . كانت تشع من جسدها رائحة جديدة حتى انني افتقدت رائحة قدميها . كنا كطفلين بالغي التعاسة .. قالت :

ـ هل نهبط ؟

قلت : هل تودين العودة الى البيت ؟ قالت :

لا أدري .. واخذت تحدق من خلال النافذة . اختفى اللـــون الرمادي وأصبحت السماء مشبعة بحمـــرة الشروق .. قالت :

ـ انني أكره الشمس ..

فكرت .. سوف تأتي الشمس . ويرى الجميع جثة نايف .. ويردد الاطفال حكاية سامية .. وتنكشف عورة الطرقات الضيقة .. عادت تردد :

ـ انني أكره الجميع ..

قلت ببلاهة حقيقية :

ـ حتى أنا ؟

قالت بتصميم بارد :

ـ أنت أولهم .. أنت أسوأهم .. أنت تتظـاهر بالشفقة اللعينة ولا تعطيني سوى الوعود والكلمات ..

قلت عاجزا :

ـ لكنك كنت تعرفين .. تعرفين منذ البداية .. لم أكذب ..

ـ كل شيء يكذب .. كلمـاتك .. وأحلامك .. والنوم في العراء .. أكره الفئران وهي تقرض فـــي منتصف الليل . وأكره لذعة البراغيث . ورائحة دورة المياه الكريهة .. وحديث أمي عن الصبر ..

انني أكره مثلك هذه الاشياء .. ولكن الكراهيـة المجردة شر ..

ـ ليست كراهيتي مجردة .. انني أكرهك عـلى وجه التحديد .. أكره الكتب المرصوصة في كل ركن.. وأكره الصور المعلقة فوق الجدران .

ضمت قبضتها ووقفت في منتصف الغرفة كأنما تحاول أن تستنزل فوقي لعنـــات مجهولة .. لكنهـا انفجرت بالبكاء .. هوت على ركبتيها وأخذت تنشـج في صوت مسموع .. اقتربت منها بتردد .. وضعت يدي على ظهرها . تناولتها وأخذت اغمرهـــا بالقبل . احتضنتها واخذنا نبكي معا .. قالت : سامحني .. أنا طفلتك الصغيرة .. قلت : يا طفلتي .. يا حبيبتي .. انني أعرف السبب.. انهم المماليك وقد عادوا خلسة.. انهم يسحبون الارض من تحتنـــا .. يهدمون دورنا ويجعلوننا نأوي الى المساجـــد . يختطفون نساءنـــا ويرغموننا على الغفـــران القهري . يأخذون أقواتنـا ويتركوننا نتصارع حول الفتات .. يا صغيرتي .. لقد عادوا .. قالت : أنت مجنون .. قلت : بـل أنا النبي ايليا .. ونايف كان المعمداني .. والآن يمتد دمه عبـر الطرقات يحمل البشارة والنـــذير .. انتفضت .. تخلصت من ذراعي .. قالت :

ـ لن أعود الى بيتنا ..

قلت :

ـ سأتزوجك .. سنعيش في هذا المكان ..

ـ كلا .. ليس في استطاعتي الزواج .. لـــن أرضى بمثل هذا المكان ..

قلت في غيظ وتهكم :

ـ أعجبتك الشقة المفروشة اذن ؟

ـ لن أتنفس هذا الهواء مرة أخرى ..

قلت وأنا أريد أن أحسم الموقف :

ـ هل تحبينني .. أم لا ؟

صرخت : ماذا يعني هذا الا مزيدا من الاستسلام.

ـ لن نستسلم .. سوف نحاول معا ..

ـ نحاول .. نحاول .. ما فائـــدة المحاولة ؟.. لا أستطيع مواصلة الحياة هنا بعد هذه اللحظة ..

اذهبي اذن .. دعيهم يختطفونك مرة أخرى ..

ـ ومن قال انهم اختطفوني ؟

قلت مذهولا :

ـ ماذا حدث اذن ؟

رايت أمير الجيوش البراني جالسا على حافـــة النافذة ، غير مبال بنا . يمسك غليونا طويـلا ويحاول اشعاله وينفث دفعات من الـــدخان المتقطع . كانت الشمس تصعد من خلفه في هدوء قاتل . سادت لحظة من الصمت . جلست سامية فوق الكرسي .. قالت :

ـ أنا التي ذهبت معهم .

القاهرة